عبـادة الشـيطـان
فى الشرق والغرب

دكـتـور

محمود سلامه

مقدمة

للصراع بين قوى الخير وقوى الشر تاريخ موغل في القدم، إذ تمتد جذوره إلى الوراء حتى تصل إلى بداية التاريخ، وبداية التاريخ ترتبط دائماً ببداية الإنسان لأن التاريخ في حقيقته إن هو إلا الأحداث المتتابعة المتدافعة نتيجة لعلاقة الإنسان بالكون عموماً وبمبدئه وبالطبيعة وتفاعلاتها، في تسلسل تأخذ حلقاته بحجز بعضها البعض في مسيرة زمانية مكانية تظل مستمرة حتى يشاء الله بانقضاته.

ومنذ أن أوجد الله هذا الإنسان بما فيه من بذور الخير كان هناك الشر متربصاً به يترصده في كل خطوة يخطوها، وفي كل خطرة من خطرات الوجدان تختلج في قلبه، وفي كل فكرة تعتمل في عقله، لايتركه هذا الشر ينعم بمهمة الخلافة التي منحها الله إياها. وطالبه بالإضطلاع بمسئوليته تجاهها، أعترافاً بفضله تعالى عبادة له، وإعماراً لأرضه، في رحلة عبر الزمان. وكان هذا الشر إبتلاء من الله إياه ليتبين ما إذا كان له أن ينجح في

مهمتـه أو يفشـل فيهـا فيكـون جـزاؤه مـن جنـس عملـه إن خــيراً وإن شــراً.

وتمثـل هـذا الشـر فـي مخلـوق من مخلوقاتـه تعـالى هــو إبليـس أو الشـيطان. الـذي خلقـه مــن طبيعـــة مختلفـــه عـــن طبيعـة هـذا الإنسـان. فكـانت هـذه الطبيعـة فـي أحـد عنصريهـا نـاراً، أمـا آدم فقـد كـانت طبيعتـه فـي أحـد عنصريهـا طينـاً مــن نفـس نـوع الأرض التـي سـتكون مجـالاً لسـعيه ونشـاطه، وميدانـاً يمـارس فيهـا مهمـة خلافـة خالقـه علـى ظهرهـا.

وكـرم اللـه هـذا الإنسـان بـأن أمـر سـائر مخلوقاتـه بالسـجود لـه سـجود أعـتراف بأفضليتـه وتفوقـه بمـا سـيلاقيه مـن كـد ومعانـاه، وبمـا سـينفذه مـن حمـل تلـك المسـئولية الخطـيرة التـي أبـت السـماوات والأرض والجبـال أن تتحملهـا مصداقـاً لقولـه تعـالى "إنـا عرضنـا الأمانـة علـى السـموات والأرض والجبـال فـأبين أن يحملنهـا وأشـفقن منهـا وحملهـا الإنسـان إنـه كـان ظلومـاً جهـولا" [1] وقـد أسـتجاب جميـع مخلوقاتـه عـز وجـل لهـذا الأمـر الإلهـي فسـجدت لهـذا

---

(1) الأحـزاب: الأيـة ٧٢.

الإنسان، ومن ثم أصبحت كلها في خدمته الملائكة تساعده وتحفظه وتراقبه رقابة محبة وحفظ وإخلاص، وترعاه في ليله ونهاره، وتهئ له من الأسباب التي تمكنه من النهوض بمهمته. ولم يرفض طاعة هذا الإنسان طبقاً للأمر الإلهي إلا عنصر واحد من المخلوقات، وهو إبليس أو الشيطان، وبذلك تمرد على أوامر خالقه وتحداه، فلعنه الله وطرده من رحمته متوعداً إياه بأن تظل لعنته عليه، وطرده له إلى يوم الدين وفي المقابل أعلن هذا الإبليس عن عدائه وكراهيته لهذا الإنسان الذي فضله الله عليه، بل إنه صمم على أن يظل يزين له طريق الغواية والإنحراف عناداً لله، ومقاومته لجانب الخير في هذا الإنسان.

ولم يقف الأمر بهذا المخلوق الشرس العنيد عند حد الإغواء للإنسان وصرفه عن المهمة والمسئولية الملقاة على كاهله وفي مهمة عناصرها عبادة الله، بل إنه نجح في بعض الأحيان في أن يستميل بعض الذرية الإنسانية في أن تستبدل عبادته هو أي الشيطان بعبادة الله تعالة الواحد الأحد. وذلك إمعاناً من الشيطان في هذا التحدي،

ومبالغة منه في الإعلان عن أن نجح في موقفه المعارض لما أمر الله به.

وكان هذا البحث رصداً لتاريخ هذا الصراع منذ البداية عبر التاريخ المعروف لنا، مبيناً بداية هذا الصراع وتطوراته ومراحله، وكذلك عبر هذه الأرض التي هي ميدان الصراع من اقصى شرقها إلى أقصى غربها واضعاً اليد على أهم الوسائل التي أصطنعها هذا الشيطان في سبيل محاولته النجاح في مسعاه الشرير، مستغلاً كل الإمكانات التي منحه الله إياها من قدرته على التسلل إلى حنايا هذا الإنسان ودخائله، والتشكل بمختلف الصور والمظاهر.

وكان السحر الذي حرمه الله تعالى من أهم الوسائل التي استغلها هذا العدو لبني آدم ليجعلهم يصلون إلى مآربهم من أقصر طريق مع في ذلك من سفك للدماء وهتك للأعراض والاستمتاع بعرض الدنيا بطرق غير مشروعة.

وهكذا كان في إمكان هذا البحث أن يحاول تغطية جانب من جوانب هذه المشكلة، ربما يكون قد أصاب في هذه المحاولة، وربما يكون قد قصر في سبيل الوصول إلى الكمال، ولاعجب فالكمال لله وحده. وهو المعين والميسر إلى سبل الخير والفلاح إنه نعم المولى ونعم النصير.

عبادة الشيطان فى الشرق والغرب

يقول الله تعالى «ألم أعهد إليكم يابني آدم أن لاتعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين، وأن أعيدوني هذا صراط مستقيم، ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون» [1] والمفهوم المتبادر من هذه الآيات أن الله عز وجل يوجه يوم القيامة توبيخاً وتعنيفاً لهؤلاء الذين أطاعوا الشيطان فضلوا عن عبادة الله وحده، وليس معنى عبادة الشيطان التى نهى الله بنى آدم عنها ممارسة طقوس عبادة الشيطان، وإنما المراد بها- والله أعلم بمراده- النهى عن الطاعة للشيطان بإتباع سبيل الغي، وترك سبيل الرشاد. أياً كان سبيل الغي.

وقد سجل القرآن الكريم بعض ماتم من حوار بين الله عز وجل وبين إبليس، وذلك عندما أبى السجود لآدم، وقد تحدى إبليس الذات العلية وأخذ على عاتقه إغواء آدم وبنيه، وبناء على ذلك طلب المهلة من الله فلايميته إلا

(١) يس: ٦٠-٦٢.

عند البعث يوم القيامة [1]، وكانت استجابة الله تعالى لهذا التحدى أن أمهله، ثم بين له أنه لايستطيع إغواء من يعبد الله حق العبادة. أما أولئك الذين لايخلصون العبادة لله فإنه يستطيع أن يفعل معهم ما يريد من الإغواء والإضلال وموعده وموعدهم جهنم يوم القيامة.

أما العهد القديم فلم يذكر شيئاً عن محاولة إبليس تحريض آدم على الأكل من الشجرة المحرمة التى أشار إليها القرآن الكريم، بل جاء الإغواء من الحية لحواء ومن حواء لآدم [2] وجاء فى إنجيل متى قصة محاولة إبليس "الشيطان" مع المسيح عليه السلام ليجعله يختبر حماية الله له، فيأمره بأن يطرح نفسه من فوق الجبل ليتبين ما إذا كان أبن الله حقاً، لأنه إذا كان ابنه فلن يلحق به الأذى، ولكن المسيح عليه السلام رفض لأنه مكتوب ألا تجرب الرب إلهك، كما أنه وعده بامتلاك الأرض إن هو سجد

(١) البقرة: ٣٤-٣٧؛ الأعراف: ١١-٢٥؛ الإسراء: ٦١-٦٥؛ ص: ٧١-٨٣؛ الكهف: ٥٠.

(٢) سفر التكوين، الإصحاح الثاني والثالث.

له، ولكن المسيح هذه المرة أيضاً يرفض، لأنه مكتوب للرب إلهك إسجد، وإياه وحده تعبد [1] الشيطان، إذن، كما هو واضح من النص القرآني مخلوق من ملخوقات الله عز وجل وهو مربوب له، والله تعالى هو ربه «وإذ قلنا للملائكة إسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً» [2]، وقد اختلف المفسرون في أصل هذا الإبليس هل هو من الجن أم كان من الملائكة؟ والنفس تميل إلى الرأى الأول لأنه يتناسل فله ذرية كما تذكر الآية الكريمة والملائكة لايتناسلون [3].

ولاشك أن الديانات السماوية الكبرى اليهودية والنصرانية والإسلام تتفق في وجود الشيطان وذريته، وإن كانت شخصية الشيطان تكاد تختفي في اليهودية على

---

(١) إنجيل متى، الإصحاح الرابع.

(٢) الكهف: ٥٠.

(٣) ابن الجوزى، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن: زاد المسير في علم التفسير، بيروت ودمشق، المكتب الإسلامي، ط٤، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، جـ٥، ص١٥٣.

نحو ما سبق، ومع ذلك فإن الزرادشتية تشارك هذه الديانات السماوية في وجود الشيطان الرئيسي وذريته أو أعوانه فإلى جانب (أهرمن) وهو الشيطان الرئيسي الذي يشارك (أهورمزدا) في إدارة الكون، الأول للشر والظلام، والثاني للخير والنور، أقول إلى جانب هذا الشيطان الرئيسي توجد شياطين على النقيض من الملائكة، فكل ملك من هؤلاء الملائكة يقابله شيطان يعمل على النقيض منه.

فالكتاب المقدس عند الزرادشتيين هو (أويستا) والذى لم يكن معروفاً خارج الدوائر الزرادشتية حتى أواخر القرن الثامن عشر. يذكر في الجزء الثاني عشر منه أنه يجب على الشخص المؤمن أن يعلن إيمانه، ويقر أنه لاعلاقة له بقوات أهرمن (الشيطان) [1].

ويحتوى هذا الكتاب المقدس على جزء رئيسي منه هو (كاتها) ويذهب الباحثون إلى أن هذا هو الجزء الأصلى الذى نزل من (أهورمزدا) على زرادشت، وفيه

---

(1) The encyclopidia fo Religions and Ethic, Vol11, P267.

أن أهورامزدا هو الأله الأعلى وأنه هو الخالق لقوى الخير والشر معاً. لكن في الأجزاء المتأخرة من (أويستا) نجد الأمر قد إختلف تماماً إذ أصبح (أهورامزدا) هو الممثل للخير فقط، وعلى الضد منه (أهرمن) ممثل الشر، ومعنى ذلك أن هذا الأخير يمارس سلطاته في إستقلال عن أهورامزدا. وإزاء هذا الموقف أصبحت الزرادشتيه ديانة ثنوية، بعد أن كانت ديانة توحيدية في عهد زرادشت، وأصبح للشيطان الكلمة العليا في عالم الظلام والشرور[١].

والحق أن النظام الروحي في الزرادشتية الأولى كان يتضمن أن أهورمزدا هو خالق الكل، وأن له ملائكة مساعدين له وهم ثلاثة أنواع الأول هو (الامشابندان)، والثاني هو (الأيزدان)، والثالث هو (الفروهران)، ويقابل هذا النظام نظام آخر يقف أهريمن على رأسه وهو الموكل بالشرور وتحته جيش من الشياطين بعدد الملائكة. وإذا

---

(١) الفقيه، عبد الجليل: الجانب العقدي في الزرادشتية، رسالة مخطوطة، بكلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية العالمية- إسلام أباد، لنيل درجة الماجستير، ١٩٩٨م، ص١٠٥-١٠٦.

كان ذلك فى بداية الزرادشتية، فإن الأمر قد إختلف فى المراحل المتأخرة، إذ أصبح أهرمن- كما سبق- معادلاً لأهورامزدا، وشياطيينه معادلة للملائكة.

وهناك فى النظام الروحى كلمة (يزدان) وهى تعنى الرب وهى لقب يطلق على كل من أفراد هذا العالم الروحى وإن كانت فى البداية لم تكن تخص إلا أهورامزدا فقد جاء فى الأوستا بعض الأدعية والإبتهالات تتضمن هذا الرب يزدان على أنه رب الأرباب "باسم يزدان (الرب) أحمدك وأدعوك، لأنك الخبير" (١).

أما كلمة (الأيزدان) فى نظام الملائكة السابق، فإنها جمع مفردها (إيزد). وهى تعنى الملائكة من المرتبة الثانية فى عالم الملكوت، وهم الذين يساعدون (الأمشاسبندان) الذين هم الملائكة المقربون، وتعنى اللائق بالمدح والثناء والدعاء (٢).

---

(١) المرجع السابق، ص١٠١.

(٢) داود، إبراهيم بور: خردا أوستا (انجمن زرتشتيان بمبتى ١٩٣١)، ص١٨٦، نقلاً عن المرجع السابق.

وهذا النوع من الملائكة يملأون الكون، حتى إن بعض الباحثين يذهب إلى القول بأنه «إذا كان أهورامزدا هو السلطان المطلق، والأمشاسبندان وزراءه وأمناءه في بلاطه، فالإيزدان هم حكام روحانيون، والسلطان ووزراؤه يقيمون، في مقامهم المنيع ويصدرون الأحكام... أما الحكام (أيزدان) فيقومون بتنفيذ تلك الأحكام الصادرة عن مقام السلطنة» [1].

ولكن كيف ظهرت عبادة قوى الشر في هذه البيئة الزرادشتية المفعمة بقوى الخير والصلاح؟

إن الإجابة على هذا السؤال تحتاج إلى إعمال الخيال المدعم بالحقائق، خاصة إذا علم أن هذا الإتجاه الشيطاني يحاط دائماً بالسرية، وتحوطه هالات من الغموض، لعل أهم عناصرها أنواع من السحر الذى لابد أن يصاحب مثل هذه الإتجاهات، كما سنرى بعد ذلك.

غير أنه مما ينبغي ألا تغفله عين الباحث فى النظام

---

(١) المرجع السابق، جـ١، ص٥٨٤.

الروحي الزرادشتي السابق، هو ورود أسمين من أسماء الملائكة ذوي الدرجة الأولى (الأمشاسبندان)، هما (هروتات) و(أمرتات). ويذكر هذان الأسمان دائماً مقترنين ببعضهما البعض، وهما الملكان الأخيران في درجة (الأمشاسبندان). وهروتات يعني في الفارسية القديمة الكمال والصحة، وأمرتات يعني طول الحياة [١]. واللافت للنظر هنا أن هذين الأسمين قريبان جداً من (هاروت) و(ماروت) الواردين في القرآن الكريم، قال تعالى: «واتبعوا ماتتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، ومايعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلاتكفر فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون مايضرهم ولاينفعهم ولقد علمو لمن

(١) أنظر: داور، بور: المرجع السابق، جـ١، ص٩٥. نقلاً عن رسالة عبد الجليل الفقيه، ص١٢٠-١٢١. وأنظر أيضاً: هاشم رضي: كنجيته أويستا، جـ١، ص١٥٩، نقلاً عن عبد الجليل الفقيه ص١٢١.

اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون» [1].

وقد جاء فى تفسير هذه الآية أقوال مفادها أن سليمان عليه السلام كان يحكم الشياطين بتعاويذ، فلما مات إستخرجتها الشياطين وعلموها للناس من بنى إسرائيل- يلاحظ أن الضمير فى قوله تعالى (واتبعوا) يعود على بنى إسرائيل، كما هو سياق النص القرآنى- كما أن هؤلاء الشياطين يعلمون الناس السحر الذي أنزل على الملكين هاروت وماروت [2].

والغريب فى الأمر أن (هروتات) فى الزرادشتية وهو الذى يعادل (هاروت) فى القرآن الكريم يرمز له بزهرة هى زهرة (السوس) وهى زهرة جميلة من طائفة الزنابق طيبة الرائحة [3] وهذا يتفق مع بعض الروايات

---

(1) البقرة: ١٠٢.

(2) ابن الجوزى: مرجع سابق، جـ١، ص١٢٢-١٢٥.

(3) حسنين، عبد المنعم محمد: قاموس فارس عربي، قم- إيران- مطبعة إسماعيليان، ط٣، ١٤٠٨هـ.

الـواردة فـى تفسير الآيـة الكريمـة السـابقة عن علـى بـن أبـى طـالب- رضـى اللـه عنـه- أن الزهـرة كـانت أمـرأة جميلـة، وأنها خـاصمت إلى الملكين هـاروت ومـاروت، فراودهـا كـل واحد منهمـا عن نفسها، ولم يعلـم صاحبـه، وكانـا يصعـدان السماء آخر النهار، فقالت لهما بم تهبطان وتصعدان؟ قـالا: باسم اللـه الأعظم، فقالت مـا أنـا بمواتيتكمـا إلـى مـاتريدان، حتى تعلمانيه، فعلماهـا إيـاه، فطـارت إلـى السماء، فمسخها اللـه كوكبـا [1].

وبـالطبع فـإن هنـاك خلافـاً بيـن هـذا الكـلام، وبيـن ماجاء فـى الأدب الزرادشـتى، ففـى الأخيـر هـى زهـرة مـن الزهـور، وهنـا هـى كوكـب الزهـرة. ولاننسـى أن مثـل هـذه الروايـات هـى إلـى الإسـرائيليات أقـرب منهـا إلـى التـاريخ الموثـق، ولابـد أن تحريفـاً قـد أدخلـه اليهـود السـاكنون فـى بـلاد العـرب إذ ذاك، خاصـة أنهـم لـم يكونـوا مـن العلمـاء اليهـود المتبحريـن.

المهم فـى الأمـر هنـا أن الملكيـن هـاروت ومـاروت أو

---

(1) ابـن الجـوزى: مرجـع سـابق، ص١٢٤.

هروتـات وأمرتـات كانـا- علـى حسـب روايـة ابـن مسـعود وابـن عبـاس- قـد أنـزلا إلـى الأرض لسـبب، وهـو أنـه لمـا كـثرت خطايـا بنـى آدم، دعـت عليهـم الملائكـة، فقـال اللـه تعـالى: «لـو أنزلـت الشـهوة والشـياطين منكـم منزلتهمـا مـن بنـى آدم لفعلتـم مثـل مـا فعلـوا، فحدثـوا أنفسـهم أنهـم إن ابتلـوا، اعتصمـوا، فـأوحى اللـه إليهـم أن اختـاروا مـن أفضلكـم ملكيـن، فاختـاروا هـاروت ومـاروت» [1] وقـد فعـل الشـياطين بهمـا مـافعلوا، وكـان السـحر هـو الوسيلة. وتحـول هـذان مـن عـالم الربوبيـة إلـى عـالم الشـيطنة أى تحـول (الـيزدان) إلـى الشـيطان.

وهـذا التحـول إنمـا كـان فـى عهـد الزرادشـتية الأخـير، ولابـد أن هنـاك نصوصـاً زرادشـتية تحكـى قصـة التحـدى بيـن إبليـس والـذات الإلهيـة العليـة- علـى فـرض أن زرادشـت نبـى حقـاً- ولابـد بعـد ذلـك أن تعـامل البعـض مـع السـحر الشـيطاني علـى هـذا النحـو قـد حـدث، ولابـد أن ذلـك كـان بدافـع الخـوف مـن قـوة الشـيطان، أو الإعجـاب بفتوتـه وجرأتـه، أو بدافـع

---

(1) المرجـع السـابق، ص١٢٣-١٢٤.

الإفادة مما فى هذا السحر الشيطاني من تسهيل للأمور التى لايمكن الوصول إليها إلا من هذه الطريقة غير الشرعية. ولذلك أحيطت هذه العبادة الشيطانية بشىء غير قليل من السرية والتكتم وظلت ممارسات هذه العبادة من طقوس وشعائر طى الكتمان خوفاً من ثورة المجتمع على من يتجه هذا الإتجاه، نظراً لما يلحق الناس من الأضرار غير المحسوبة من هذا السحر الشيطاني.

وإذا كان الإنحراف عن الحق والميل إلى الباطل فى كل عصر يجنح فى الغالب إلى السرية والكتمان. فقد تبين بعد فترة طويلة من إظلال الإسلام لبقعة عريضة من بقاع العالم القديم وجود قطاع من الناس فى بقعة من هذه البقاع يعيشون منعزلين فى مناطق وعرة من بلاد الأكراد يدينون بعبادة الشيطان يسمون بطائفة (اليزيدية) ظلوا حقبة طويلة مجهولين لايعرف عنهم أحد شيئاً إلى أن بدأ كشف النقاب عنهم فى العصر الحديث ومحاولة تتبع جذور هذه النحلة العجيبة، فاختلفت فيهم الأقلام، فى أصلهم، وفى أسباب هذه التسمية باليزيدية. لكنها أجمعت على مضمون عقيدتهم وهى عبادة الشيطان، وفى الرمز الذى أتخذوه

لمعبودهم وهو (الطاووس ملك).

نعم تحدثت عنهم بعض كتب الملل والنحل القديمة من أمثال (الملل والنحل للشهرستاني) محاولة تبرير هذه التسمية. فمن قائل إنهم ينتسبون إلى (يزيد بن أنيسه) أحد زعماء الخوارج، ومن قائل إنهم ينتسبون إلى (يزيد بن معاوية) الخليفة الأموى السابق، وربما كان هذا هو الرأى الذى يكاد الكثيرون يعتقدونه نظراً لتقديسهم لواحد من ذرية البيت الأمرى، وهو (عدى بن مسافر) الذى أصبح قبره فى تلك المنطقة الوعرة من شمالى العراق مزاراً لهم وموضع احترامهم، ومن قائل إن أصلهم أبعد من ذلك بكثير يضرب فى أعماق التاريخ قبل ظهور الإسلام منذ الإنحراف عن الربوبية (اليزدانية) على نحو ما سبق شرحه. وقد تم إكتشاف كتابين لهذه الطائفة يعتبران مقدسين عندها، ومصدر عقيدتها وتشريعاتها وهما كتاب (الجلوة) وكتاب (مصحف رش) أو الكتاب الأسود وقد كتبت بحوث حول هذه الطائفة فى العصر الحديث كلها تحاول اكتناه سرها، ومعرفة حقيقتها، وقد تنوعت هذه البحوث من عربية وأجنبية، بل إن بعض الباحثين

الغربيين قد ذهب إلى تلك المنطقة بنفسه وعاش بين أفراد هذه الطائفة ليصل إلى القول الفصل في شأنها. هذا بالإضافة إلى تطوع أحد زعماء هذه الطائفة نفسها وهو (إسماعيل بيك جوجول) بالكتابة عنها وعن أوضاعها الدينية والإجتماعية [1].

ولعل بشار بن برد كان من أتباع هذا الإتجاه حيث يقول:

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتنبهوا يامعشر الفجار
إبليس من نار وآدم طينة والطين لايسمو سمو النار

ولاشك أن بشاراً كان يتمتع بشيء غير قليل من الجرأة والتقحم، إذ إعلن عن دينه ومشربه دون حذر،

---

(1) R.H.W, Smpison: The Cult of the Peacock angel-sort account of yezidi tribes of Curdstan, London, H.F. and G. Witherly, 1928.

وأنظر: سهير محمد على الفيل: اليزيدية، القاهرة، دار المنار، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

وأنظر: أحمد تيمور: اليزيدية ومنشأ نحلتهم، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٤٧هـ.

ولذلك أورد نفسه مورد التهلكة.

ويبدو أن هذه اللوثة لم يسلم منها المجتمع الإسلامي منذ وقت مبكر، ويتضح ذلك مماشاع عن علم الحروف السحرى بين أوساط كثير من المثقفين، وفى مقدمتهم بعض المتصوفة الذين عبروا عن هذا الإتجاه بإظهار إعجابهم بإبليس، فقد خلعوا عليه بعض صفات الفتوة نتيجة لموقفه من الذات الإلهية، ورفضه السجود لآدم وقال أنا خير منه، وقد سمعنا لأول مرة أن الحلاج قد خلع عليه هذا الوصف (الفتوة). ولذلك يروى عنه قوله: «إن رجعت عن دعواى (وهى قوله: أنا الحق) سقطت من بساط الفتوة» [1]، ويتخذ من دعوى إبليس أنه أفضل من آدم فى قوله: «أنا خير منه» ومن دعوى فرعون الألوهية فى قوله «أنا ربكم الأعلى» دليلاً على فتوتهما، فيقول على لسان الأول «إن سجدت سقط عنى إسم الفتوة»، وعلى لسان الثاني: «إن آمنت برسوله، سقطت من منزلة الفتوة»

---

(1) الحلاج: الطواسين، ص٥٠، نقلاً عن عمر الدسوقي: الفتوة عند العرب، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، ط٣، ١٩٥٩، ص٢٢٣.

[1] وإذا أقترن هذا الإتجاه وهو خلع صفة الفتوة على إبليس، بما إشتهر عن هذا النوع من المتصوفة من السحر مستخدمين فى ذلك ما عرف بعلم الحروف، تكون الصورة قد أصبحت شبه كاملة فى طريق عبادة الشيطان.

وكان جابر بن حيان أول من عرف من بين المسلمين بهذا العلم وله فى ذلك (كتاب التصريف) حيث جعل لكل حرف قوة تقابل عنصراً من العناصر المكونة للطبيعة بحيث يحمل نفسه القوة والإمكانات التى يختص بها هذا العنصر أو ذاك [2]، وينقل عن جابر قوله: «إن الماجد هو الذي بلغ بنفسه وكده من العلم إلى منزلة الناطقين، فصار ناطقاً ملاحظاً للصامت، وصارت منزلته من الصامت منزلة السين من الميم وذلك على رأى أصحاب العين، لأعلى رأى أصحاب السين؛ وأما على رأى أصحاب السين، فكمنزلة العين من السين، على

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) محمود، زكى نجيب: جابر بن حيان، القاهرة، مكتبة مصر، ١٩٦١، ص١١٩-١٣٩.

الخلاف الذى يقتضيه خلاف المذهبين: س٨-س١١» [١].

ويبدو أن الحلاج كان قد برع فى هذا النوع من سحر الحروف، فقد روى البغدادى صاحب تاريخ بغداد أن أحد الحراس فى سجن الحلاج رآه وقد إنتفخ حتى ملأ الحجرة كلها. كما أن ابن عربى كانت له عناية كبيرة بهذا النوع من علم الحروف، وهو يعترف بأنه ورث ذلك عن ابن مسرة الجيلى [٢].

وقد شرح لسان الدين بن الخطيب هذه الطرق شرحاً وافياً قال: «وصاحب هذه الطريقة وجد إلى ذكره وكونه ذاكراً أن أسماء الله التى جعل مظاهرها الصور الروحانية، وهى الملائكة، وهى أرواح الأفلاك أو

(١) مختارات رسائل جابر بن حيان، عنى بتصحيحها ونشرها بول كراوس، القاهرة، ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م، نقلاً عن عبد الرحمن بدوى: شخصيات قلقة فى الإسلام، الكويت، وكالة المطبوعات، ط٢، ١٩٧٨م، ص٤٩.

(٢) ابن عربي: كتاب الميم والواو والنون (ضمن رسائل ابن عربي) حيدر أباد الدكن، جمعية دائرة المعارف العثمانية، ١٩٤٨م، ص٥.

الكواكب وسكان العالم الأعلى، وعمرة السموات، وأسباب كل فعل (وجد أن) وسائط الله فى كل أمر وخلق لما يقع فى العالم بإذنه وحكمته، وبتنزلاته أحاطت حكمته العوالم كلها، وبلغت ماتحت الثرى- أصولها الحروف، وطبيعتها سارية فى تلك الكمالات الأسمائية، وأن البارى جل وعلا أبرز العالم من العلم القديم إلى الكون المحدث، أبرز الأكوان العلوية والسفلية وقدر فيها الأسرار الحرفية فى الإبداع الأول مختلفة بإختلاف أطواره ومعبرة عن أسرار الحق وأقداره» (١).

ويصرح ابن عربي بهذا العلم بمزيد من التوضيح ليبين مدى تأثيره القوى فيقول: «قال تلميذ جعفر الصادق صلوات الله عليه، سألت سيدى ومولاى جعفراً: لماذا سمى الطلسم طلسماً؟ قال صلوات الله عليه: لمقلوبه، يعنى أنه مسلط على ماوكل به»(٢) على أننا ينبغى ألاننسى

---

(١) ابن الخطيب، لسان الدين: روضة التعريف بالحب الشريف، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٣٢٨.

(٢) ابن عربي: كتاب التجليات، (ضمن رسائل ابن عربي) مرجع سابق، ص٢٥١.

أن ابن عربي نفسه كان من المعجبين بإبليس عندما رفض السجود لآدم، ومن ثم فهو يقتفى أثر الحلاج فى ذلك غير أنه يبرز إعجابه بطريقة تخالف ماذهب إليه الحلاج الذى نسب إبليس إلى الفتوة، فهو يذكر أن ذلك من إبليس أمعن فى التوحيد لأنه لايشرك بالله أحداً [1] والغريب فى الأمر أن ابن عربي يذهب إلى أنه يرفض الخوف من الله، ويفضل على الخوف مقام الهيبة إذ يقول: «ولما أقامنى الله فى مقام الخوف كنت أخاف من ظلى أن أنظر إليه، لئلا يحجبنى عن الله، وعلى هذا كله، فما هى الدنيا دار أمان، ولوبشر الإنسان بالسعادة، فإنها محل نقص الحظوظ، وسبب ذلك إنما هو التكاليف الشرعية، فإذا زال التكليف الذى هو خطاب الشارع، بالأمر والنهى، إرتفع عن العبد الخوف العرضى وبقيت الهيبة، فيكون خوفه هيبة المشهد الإلهي. قال الشاعر يصف إجلال حضرة قوم:

---

(1) ابن عربي: كتاب الأحد، (ضمن المجموعة السابقة)، ص٥.

كأنما الطير منهم فوق أرؤسهم

لاخوف ظلم ولكن خوف إجلال» [١]

وبذلك نرى أن جمع ابن عربي لعلم الحروف، وإعجابه بإبليس الذى رفض السجود لآدم إمعاناً فى التوحيد، ورأيه فى أن التكاليف الشرعية تعيق الإنسان عن هيبته لله. كل ذلك مؤداه نتيجة واحدة هو استمراره على نفس الخط الذى سلكه أسلافه.

ومع ذلك فلانملك إلا أن نقول إن الله تعالى أعلم بهؤلاء القوم، لأنهم وإن صدرت منهم أمثال هذه الأقوال، فإنهم فى نفس الوقت فى أماكن أخرى يتحدثون عن حقيقة التوحيد وسلوك طريق الله عزو جل حديثاً لانشك معه فى أنهم بعيدون كل البعد عن عبادة الشيطان. وربما ندت منهم هذه العبارات على سبيل سبق اللسان، ومن ذا الذى ماساء قط!!

---

(١) ابن عربي: كتاب الأسفار، (ضمن المجموعة السابقة)، ص٥٨-٥٩.

لـم تقـف عبـادة الشـيطان المصاحبـة للسـحر والأعمـال الخفيـة الغامضـة علـى الشـرق، بـل إنتقلـت إلـى العـالم الغربـي. وهنـاك إحتمـالان فـى الطريـق الـذى سـلكته هـذه العبـادة مـن الشـرق إلـى الغـرب والإحتمـال الأول يتصـل بـاليهود الذيـن تحـدث عنهـم القـرآن الكريـم مـن أيـام سـليمان عليـه السـلام، واتبـاعهم للشـياطين واسـتخدامهم السـحر، لاسـيما أن الآيـة الكريمـة السـابقة تبيـن أن السـحر والكفـر مقترنـان.

والإحتمـال الثـاني أن تكـون قـد سـلكت عـن طريـق احتكـاك بعـض المتصوفـة المسـلمين المتطرفيـن مـن أمثـال ابـن سـبعين وغـيره بمفكـرى أوروبـا لاسـيما إبـان الحـروب الصليبيـة. خاصـة أن هنـاك قصصـاً عـن بعـض القديسـين فـى أوروبـا، تقـول : إنهـم كـانت تحـدث منهـم أحـداث تشـبه تلـك التـى تحـدث لبعض متصوفـي الإسـلام المعـاصرين لهـم. فقـد روى أن القديـس فرنشيسـكو الأزيـزى (١١٨٢م-١٢٢٦م) تـألف ذئـب (جوبيو) وكـان يخاطبـه، كمـا كـان ينـاجى الطيـور، وهـذا يشـبه تمامـاً مـا كـان يفعلـه أبـو مديـن شـعيب (١١٢٠م-١١٩٧م) مـع الكـلاب والغزالـة والأسـد. والشـىء المحـير أن القديـس فرنشيسـكو زار مصـر سـنة ١٢١٩م لكـى ينـاظر

علماء المسلمين [١]. كذلك ماروى عن أبى مدين وولده، فقد رأى هذا الولد السفن فى البحر وهى بعيدة عن الأنظار العادية، وقد علق أسين بلاثيوس على ذلك بأن هذه الحادثة أشبه بالإيحاء المغناطيسي، فالوالد هو الوسيط، وأبو مدين هو المنوم أو الرائى، ومع ذلك فإن ابن عربي يذكر أن هذه الحادثة من باب الكرامات [٢].

ويجب ألا ننسى ماكان لابن سبعين من اتصالات علمية مع فردريك الثاني ويروى ابن الخطيب قال: «وحدثنى شيخنا أبو البركات (بن الحاج) قال: حدثنى أشياخنا من أهل المشرق أن الأمير عبد الله بن هود سالم طاغية النصارى، فنكث عهده، ولم يف بشرطه، فاضطره ذلك إلى مخاطبة المقوقص الأعظم(شكاه) برومه، فوكل أبا طالب بن سبعين أخا أبى محمد (عبد الحق) للتكلم عنه

---

(١) بدوى، عبد الرحمن: أبو مدين وابن عربي (ضمن الكتاب التذكارى- محيي الدين بن عربي فى الذكرى المئوية الثامنة لميلاده- إشراف إبراهيم مدكور)، القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ص٧٨.

(٢) المرجع السابق، ص١٢١.

والقعود بين يديه، قال: فلما بلغ باب ذلك الشخص المذكور برومه، وهو بلد لاتصل إليه المسلمون، ونظر إلى مابيده، كلم ذلك القس من دنا منه من علمائهم بكلام، ترجم لأبى طالب بما معناه: أعلموا أن أخا هذا ليس للمسلمين اليوم أعلم بالله منه»[1].

ونعود إلى الإحتمال الأول، وهو الذى يقول إن إنتقال عبادة الشيطان مصحوبة بالسحر الذى أصبح علماً له قواعده إلى أوروبا والعالم الغربي عامه كان بواسطة اليهود، والشيء المثير للدهشة هذه المرة أيضاً أن يكون حملة هذا الإتجاه إلى العالم الغربي أيضاً من أصحاب الإتجاه الصوفي عند اليهود، وهو إتفاق عجيب غريب ربما يحتاج إلى بحث آخر لبيان مدى العلاقة التى تربط بين الخط الصوفى المتطرف عند المسلمين، وهؤلاء اليهود الذى نزعوا إلى التصوف ومارسوا هذا السحر، وكان منهم عبدة الشيطان. ومنهم انتشرت هذه العبادة بين

(1) ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة فى أحوال غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، القاهرة، جـ٤، ص٣٤-٣٥.

الأوربيين على نطاق واسع منذ القرن الثاني عشر تقريباً. فما قصة هؤلاء اليهود المتصوفة إذن؟

يبدو أن اليهود لم يسلموا من التأثير الزرادشتى فى جوانب كثيرة، لعل أهمها قول طوائف كثيرة منهم بالمنتظر المخلص تلك العقيدة الزرادشتية القديمة التى أثرت فى المسيحية بعد ذلك، كما أثرت فى بعض الطوائف فى المحيط الإسلامي، ومن بينها ما عرف عن المسلمين الشيعة وبعض الصوفية، وما عقيدة ختم الأولياء عند ابن عربي، ومن قبله الحكيم الترمذى إلا أثراً من هذه الآثار الزرادشتية، وهو الأمر الذي حدى بالمفكر الألماني شبنجلر إلى القول بأن هذه الديانات الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام ديانات مجوسية [1]، ولسنا هنا بصدد تصحيح فكرة شبنجلر بالنسبة للإسلام على الأقل، إذ إن حكمه هذا أقل مايوصف به أنه حكم معهم لايليق بالبحث العلمى.

(1) Spengler, Oswald: The Decline of the West, trans by C.E Atkinson, V.1, P.61.

على أية حال فإن الفكر القبالي عند اليهود- فيما يبدو- كان أكثر القطاعات الدينية اليهودية تأثر بالزرادشتية فى خاصيتين أثنتين هما فكرة الإنتظار، وفكرة الإنحراف من النقيض إلى النقيض المتمثلة فى ترك عبادة الله إلى عبادة الشيطان. وكلا الفكرتين من خصائص الديانة الزرادشتية فى عهدها المتأخر، وقد فصلنا القول فى فكرة الإنحراف إلى عبادة الشيطان وما صاحبها من الإشتغال بالسحر بأنها ذات طبيعة مزدوجة، فقد يكون الزرادشتيون هم البادئين بها ثم انتقلت إلى اليهود، كما فى قصة هاروت وماروت، وقد يكون اليهود هم البادئين بها ثم إنتقلت إلى الزرادشتية، كما هو واضح من قوله تعالى المذكور سلفاً «واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان......» الآية.

والقبالة Kabbalah عند اليهود هي علم التأويلات الباطنية والإتجاهات الصوفية. وهى تعنى من الوجهة اللغوية الحرفية (التراث) الذى يحظى بالقبول، وهى تعنى الفكر التأملى الشفوى فى البداية، ثم تطورت فى القرن الثانى عشر إلى نوع من التصوف وكانت هذه الأفكار

التأويلية على الباطنية ما تعنيه الأفكار الباطنية فى المحيط الإسلامي من إفراغ التراث أو النصوص المقدسة من مفهومها الدينى الإلهى، وإحلال مفاهيم دنيوية انحرافية محلها، ولذلك جنحت إلى السرية لأنها تحمل فى طياتها عوامل تدمير لكل ماهو إلهى، والإعلاء من كل الأشكال المادية الإنحلالية، وقد عمل بعض المفكرين من اليهود على أن يحل هذا النظام التأويلي محل التلمود وبقية الكتب المقدسة الأخرى، وقد وصل الأمر فعلاً إلى هذه النتيجة فى القرن السادس عشر.

وقد كان وراء اعتناق كثير من اليهود لهذه العقيدة القبالية دوافع اقتصادية واجتماعية، وذلك أن شدة الفقر والعزلة التى عانى منها اليهود فى المجتمع الأوربى وخاصة فى شرق هذه القارة. أضطرت الكثير منهم إلى الأنكفاء على ذاتهم فى مسحة تصوفية استبطانية، كما جعلتهم يلجأون إلى فكرة انتظار منتظر يخلصهم مما يعانون منه من يؤس وفاقه، فالهروب من الواقع المؤلم إلى داخل الذات، واللجوء إلى الزهد فى كل شيء حتى العقائد الموروثة، واللجوء إلى إستخدام نوع من السحر

يحقق لهم ما ماعجزوا عن تحقيقه في واقع الحياة، ووسيلتهم في ذلك تنفيذ ما يأمرهم به شياطينهم التي تساعدهم في الوصول إلى مآربهم عن طريق هذا السحر الأسود الذي يساعدهم في الإسترزاق من شفاء المرضى والممسوسين، ومن بين كتب القبالة في العصر الحديث (الباهير) و(الزوهار) [١].

وقد ترتب على ذلك أن ظهرت منظمات تعتنق هذا الفكر القبالي مثل (الحيسيدية) التي تشبه إلى حد بعيد الطرق الصوفية من حيث الإتجاه التقشفي والزهد واللجوء إلى الحفلات الصاخبة من رقص وغناء ناهيك عما يحدث في مثل هذه اللقاءات من إنحلال خلقي عبثي وأصبح لقب (الهيساديك) من نصيب الزعيم أو القائد الروحي لمثل هذه المجتمعات الذي توكل إليه بث تعاليم (الحيسيدية) المعتمدة على فكر القبالة المشار إليه سلفاً، وكان من الطابع الأهم

(١) Die yeloten, Ders: Untersuchungen zur judischen Freiheitsbewegung in der zeit von Herodes I, Bis 70n, chr., Leiden/koln 1961 (AGSU1) 1976 (AgJU1), B.1, P.3-90.

فـى ذلـك كلـه المخالفـة لمـا فـى العهـد القديـم مـن تعـاليم، بـل العمل فـى الطريـق العكسـى لكـل هـذه التعـاليم، ومنهـا تمجيـد الشـيطان وممارسـة السـحر لاسـتحضار الشـياطين الذيـن ينفـذون مـايطلب منهـم فـى مقـابل أن يديـن هـؤلاء بـالولاء والطاعـة لهم، وأصبـح ولاء الغالبيـة العظمـى مـن اليهـود فـى أوروبـا بدينـون بـه للهيسـاديك صـارفين النظـر عـن اتبـاع الحاخامـات الرسـميين (١).

إن مخالفـة التعـاليم الدينيـة والإنطـلاق علـى السـجية بحيث يتجـه الفرد إلـى فعل كل مـايحلو لـه دون مراعـاة لحـل أو حرمـة أمـر محبـب لـدى الكثـير مـن النـاس، خاصـة فـى مجتمـع يفتقـر فيـه عـالم الدين أو رجـل الديـن إلـى المصداقيـة مـن جهـة، وتكـون السـمة الغالبـة فـى هـذا المجتمـع هـى الفقـر والعـوز مـن جهـة أخـرى. فـى نفـس الوقـت الـذى ينظـر فيـه الأفـراد البؤسـاء إلـى القـادة الدينيين الذيـن يفـترض فيهـم أنهـم فـى قمـة القنـاعـة والسـلوك الأخلاقـى، وإذ بهم فـى قمـة القسـوة والجشـع مـن جهـة ثالثـة، كـل ذلـك مـن شـأنه أن يحـدث ردة

---

(1) Ibid, 3-87:90.

تقسية عنيفة داخل الإنسان، ومن ثم يأخذ فى البحث عن أى اتجاه يخالف الدين وتعاليمه، بل إنه ربما يتوجه بالولاء والطاعة إلى أعدى أعداء الدين وهو الشيطان الذى مل الناس من ترديد اللعن الموجه إليه، على ألسنة هؤلاء الذين انسحبت ثقة الناس فيهم منذ زمن، وعلى العكس من ذلك، يحقق لهم هذا الشيطان واقعاً سهلاً عن طريق السحر، ما عجز الحاخامات عن تحقيقه لهم.

وهذا يذكرنا بالقصة المؤلمة التى يرويها لنا صاحب (اللمع) عن الشيخ المتصوف المخلص فى تصوفه وهو عبد الواحد بن زيد الذى سمع عن جماعة ممن ينتمون إلى التصوف زوراً، فقابل أحدهم وسمع منه كلاماً غريباً عن الحفلات الصاخبة التى يقيمها مع أصحابه فى الصحراء كل ليلة، فسأله الشيخ عبد الواحد عن خبره، «قال: ياأستاذ! نحن كل ليلة ندخل الجنة ونأكل من ثمارها. قال: فقلت له خذونى معكم الليلة، قال: فأخرجونى معهم إلى الصحراء، فلما حبسهم الليل، فإذا بقوم عليهم ثياب خضر، وإذا بساتين وفواكه، قال: فنظر عبد الواحد إلى أرجل هؤلاء الذين عليهم الثياب الخضر، فإذا هى مثل

حوافر الدواب، فعلم أنهم شياطين، فلما أرادوا أن يتفرقوا، قال لهم (أى عبد الواحد): إلى أين تذهبون؟ أليس إدريس النبي، صلى الله عليه وسلم، لما دخل الجنة لم يخرج منها؟ قال: فلما أصبحوا، فإذا هم على مزابل بين روث الدواب، فتابوا، ورجعوا، إلى صحبة عبد الواحد بن زيد، رحمه الله» [1].

وبالتأمل فى هذه القصة، وفى المجتمع الإسلامي فى ذلك الحين، يجد أن الدوافع تكاد تكون متشابهة، فهؤلاء الذين أتجهوا هذا الإتجاه، كانوا بلاشك طائفة من الناس الذين لم يرزقوا حظاً وافراً من الثقافة الدينية، ومن ثم إختلط عليهم الأمر، فساروا وراء دجل الدجالين، ممن يتعاملون مع الشياطين، دون أن يفرقوا بين المتصوف الحقيقى من أمثال الشيخ عبد الواحد بن زيد، وبين هؤلاء الشيطانيين، كما أنهم فقدوا الثقة فى كثير من الفقهاء الذين

(١) الطوسى، السراج أبو نصر عبد الله بن على: اللمع، تحقيق: عبد الحليم محمود وطه عبد الباقى سرور، القاهرة، بغداد، دار الكتب الحديثة- مكتبة المثنى، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م، ص٥٤٥.

كانوا يسيرون فى ركب الحكام الظلمة، ويبررون لهم ما يرتكبونه فى حق الناس من المظالم، كل ذلك ألجأهم إلى مالجأوا إليه، وهذا هو الوضع الطبيعي فى كل مجتمع يفقد الناس فيه الثقة فى القيادات بسبب سوء تصرفهم وعدم مصداقيتهم، ومن ثم فإن هؤلاء الناس يضطرون إلى العمل الخفى السرى تمارس فيه أبشع الجرائم، وأحط مظاهر السلوك.

وهذا هو الذى حدث بالفعل فى المجتمع الأوربى منذ القرن الثاني عشر، مع تفاقم الوضع كلما تقدم الزمان، حتى أصبح لعبادة الشيطان وممارسة السحر الأسود فيما ظهر بعد ذلك فى صورة جمعيات تحضير الأرواح.

والقصة من البداية تتطلب منا إلقاء بعض الضوء على الفكر والثقافة فى أوروبا منذ عهد فردريك الثاني صديق ابن سبعين، ذلك الذى اعتلى عرش الإمبراطورية الرومانية عام ١١١٢م. ومن المحتمل أن يكون ابن سبعين هو المسئول عن وصول الكتابين المشهورين اللذين أحدثا ضجة فى العالم الإسلامى إلى فردريك ونعنى بهما كتاب (الزمردة) لابن الروندى، وكتاب (مخاريق الأنبياء) لأبى

بكر محمد بن زكريا الرازى، وكان من نتيجة ذلك أن كتب الإمبراطور فردريك الثاني كتاباً سماه (المخادعون الثلاثة) يقصد موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام. ومن ثم بدأت موجة الإلحاد تنتشر فى أنحاء أوروبا، وأصبحت الأقانيم الثلاثة مخلوقات تتجسد جميعاً، وأصبح كل إنسان عضواً إلهيا كالمسيح، وأن جميع آيات الكتب المقدسة فى الألوهية تنطبق على كل واحد من الناس [1].

وكانت هذه الآراء مقدمة لما سيظهر بعد ذلك مما سمى بالديانة الطبيعية وخاصة حين أكدت الكشوف التى قام بها كولومبس وفاسكو دى جاما وماجلان أن هناك شعوباً بمعزل عن المسيحية لها أخلاقها وآدابها وتراثها، فهذه الأخلاق إذن أخلاق طبيعية، فالطبيعة هى المبدأ، وهى النهاية.

وقد إنتهى الأمر بهذا الإتجاه الطبيعى بفصل الدين

---

(١) محمود، عبد القادر: الفكر الإسلامي والفلسفات المعارضة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص١٩١.

عن الدولة ثم محاولة تقويض المسيحية نفسها عن طريق حدوث ثوارت داخلها كما في حركة البروتستاتية وغيرها.

وبمجيء القرن السابع عشر يظهر بسكال (ت ١٦٦٢م) ليقول إن الإيمان نوع من المغامرة التي لابد أن يضحي فيها الإنسان بعقله من أجل عقيدته، وتسير الأمور سيرها، ويشتد الهجوم على الدين بوجه عام والمسحيحية بوجه خاصن فيعلن ديدور Diderot (ت ١٧٨٤) أن المسيحية باطلة، لأنها أكثر الديانات تخيلات وغموضاً وقيوداً، ولهذا فهي عرضة للإنقسام إلى أحزاب وشيع، كما أنها أكثر الديانات خطراً على الأمن العام وعلى الملوك، وهي ذات نظام قائم على الإضطهاد والجبروت، وما فيها من كآبة قاتلة في طقوسها،و لأنها غير إجتماعية في أخلاقها [1].

على أن من الإنصاف ألا نحمل أصحاب هذه

(١) المرجع السابق، ص١٩٤، وأنظر

- Tindal: christianity as old as, the creation, pp236-242.
- Also: Diderot: Letter to Damiaville, 1966, P.477.

الدعـوات الرافضـة للديـن كـل المسـئولية، فقـد كـان هنـاك أيضـاً رجـال الدين الجامدون، الذيـن حـاولوا أن يتصـدوا لكـل أكتشـاف جديد فـى ميدان العلم، معتبرين ذلـك مخالفـة للديـن، ولمـا جـاء فـى الكتـاب المقدس، إذ إنهـم أعتقدوا أن كـل كشـف جديد غير مؤيد من الكتاب المقدس إلحـاداً، فقـد لقيـت آراء كوبرنيكـوس رد فعـل قويـاً عنـد البروتسـتانتيين ممـا جعـل مـارتن لوثـر يديـن هـذه الإكتشـافات التـى تحـاول معارضـة الكتـاب المقدس، ففـى الوقـت الـذى يذكـر فيـه الكتـاب المقـدس أن يوشـع بـن نـون أمـر الشـمس لا الأرض أن تثبـت، يقولـون إن الشـمس ثابتـه... وهنـا كـان لابـد مـن أصطـدام العلـم الحديـث بسـلطة الكنيسـة [١].

هـذا بالإضافـة إلـى ماعانتـه الشـعوب الأوربيـة طيلـة العصـور الوسـطى مـن التحـالف غـير المقـدس، بيـن رجـال الكنيسـة، والإقطـاع والأبـاطرة.

وقـد ترتـب علـى ذلـك أن أثـرى رجـال الكنيسـة ثـراء

---

(1) Russell, Bertrand: Historg of Western Philosophy, P.556.

فاحشاً، والشعوب فى مختلف أنحاء أوروبا تعانى الشظف والحرمان، بل إن رجال الكنيسة كانوا يؤيدون رجال الإقطاع ورجال الحكم من أجل امتصاص مزيد من دماء هذه الشعوب وفى نفس الوقت لاتخل مواعظ رجال الكنيسة من التحذير من الشيطان، والنتجية الحتمية أن تبحث هذه الشعوب الجائعة عن هذا الشيطان ربما تجد عنده مايسد رمقها، ويمنحها من اللهو والسرور مايعوضها ما تعانيه من تضييق رجال الدين من تزمت وتحريم لكل ماهو معقول أو غير معقول. والبحث عن الشيطان هذه المرة لابد أن يكون خلال السراديب المظلمة والغرف المغلقة حيث السحر وتحضير الأرواح وممارسة الجنس والرقص والغناء. فى أحضان الرجال الذين اتخذوا القبالة عقيدة لهم من طائفة (الحيسيدية) بقيادة رجال (الهيساديك).

كانت الشعوب فى أوروبا من حقها أن تفعل ذلك «لقد بدأ الزراع البسطاء السذج الذين كانت قلوبهم تنطوى على شعور دينى أصدق وإحساس أعمق من شعور رجال الإكليروس هؤلاء وإحساسهم لقد بدأوا يشكون فى هذا الدين المنزل، وتساورهم الريب فى أن هؤلاء القسس

المتوجين والرهبان.... كانوا شيئاً ما أقل من تلامذة المسيح وحوارييه، وبدافع الصدق الذى تمليه عليهم قلوبهم، شرعوا يخلقون لهم ديناً خاصاً بهم، ديناً يستطيعون أن يحترموه ويوقروه، وقد وجدوا هذا الدين فى الأساطير والخرافات التى كانت تروى عن قديسى الكنيسة... بدلاً من هذا الرب الذى كان يتمثل لهم فى أشخاص قسس الكنيسة المختالين الفخورين، ذوى النفوس الدينئة الذين قدت قلوبهم من صخر؛ ولقد بلغ من عظم احتقار الشعب لرجال الإكليروس الخليعين النهابين هؤلاء أن جماعات بأكملها من جماهير الفلاحين قد انتقلت إلى مذاهب دينية منافسة للكنيسة الكاثوليكية، تلك المذاهب التى نشأت فى جهات لم يكن من اليسير الوصول إليها فى كل من فرنسا وألمانيا وإنجلترا واسكتلنده؛ وقد كانت هذه المذاهب تهديداً خطيراً لسلطان الكنيسة؛ ففى بعض الحالات أخذت الخصومة نحو الكنيسة صورة متطرفة من صور عبادة الشيطان، وذلك بفضل دواوين تفتيش الكنيسة، وبسبب تعصبها وألوان التعذيب البشعة التى كانت تنزلها بالخارجين على الدين الذين كان يدخل فى عدادهم أى

عالم يجادل فى أخطاء العقيدة الإكليروسية فى أمر العلوم الطبيعية».

«ولما كانت الكنيسة تعزو إلى الشيطان هذا العدد الجم من الأشياء الظريفة والمعقولة، فبها ونعمت، إنهم يفضلون نبذ الكنيسة والأنضواء تحت لواء الشيطان، إنهم يفضلون أن يفعلوا جميع الأشياء التى كانت السلطات الدينية تحرم عليهم فعلها، ومن بين هذه الأشياء الاعتقاد فيما يقوم عليه الدليل من حواسهم وإمتاع أنفسهم بطيبات الحياة الدنيا، والتنعم بنعمة الحب» [١].

إن هذه الأحداث التى يتحدث عنها (راسكو) إنما حدثت فى القرن الخامس عشر، وكان حديثه هذا عن أوضاع رجال الاكليروس وطغيانهم وانتشار عبادة الشيطان المصاحبة للسحر، وذلك على نطاق واسع فى معظم أنحاء أوروبا، كان ذلك بمثابة المدخل للحديث عن

---

(١) راسكو، برتون: عمالقة الأدب الغربي، ترجمة ومراجعة: درينى خشبة وأحمد قاسم جودة: الألف كتاب، القاهرة، مؤسسة روزاليوسف، ١٩٦١، ص١٢-١٣.

الشاعر الفرنسي (فيون). وقد كانت التعلة التى دفعته إلى هذا الحديث عن عبادة الشيطان، أن هذا الشاعر- موضوع الحديث الرئيسي- ولد فى نفس العام الذى لقيت فيه جان دارك حتفها نتيجة لإتهام رجال الإكليروس لها بعبادة الشيطان [١].

فماذا كانت قصة جان دارك مع الشيطان وانحرافها عن دين الكنيسة الكاثوليكية فى روما؟

مما لاشك فيه أن اتجاه الكثيرين فى أوربا إلى عبادة الشيطان وإتخاذ السحر والدجل ثوباً لهذه العبادة، إنما كان يقف وراءه عاملان رئيسيان الأول هو هذا الطغيان الكنسى المشار إليه سلفاً، والثاني انكباب الشباب على قراءة كثير من الكتب التى كانت تحرمها الكنيسة وفى مقدمتها تلك الكتب المنسوبة إلى عقيدة القبالة التى سبق الإلماع إليها، هذا بالإضافة إلى كتب السحر والتصوف الغامض الذى أشاعه كل من اعتنق عقيدة القبالة، وامعاناً فى هذا الإتجاه السحرى كانوا يعلنون أنهم

---

(١) المرجع السابق، ص١٩.

بواسطة السحر يستطيعون تحويل الحديد إلى ذهب، كما كانوا يقومون بممارسة الشعائر والطقوس المسيحية بطريقة هزلية، هذا بالإضافة إلى الأساطير التى كانت تتناقلها الجماهير شفاهة تلك التى تتصل بفاوست والتى عالجها كل من مارلو وجيته فى شعرهما، وكانت الجماهير تجد متنفساً لها فى خرافات القداس الحزين (أو قداس الموتى) وقصة (بلوبيرد) وقصة (جى دى رتز) Gilles de Retz أو (دى ريز) De Rais وهو قائد الجيوش الفرنسية التى كانت تحارب الإنجليز لطردهم من فرنسا مع (جان دارك) التى يلقبها الفرنسيون بالشهيدة أو القديسة.

ومن الذين كتبوا فى هذا الموضوع (مرجريت أليس مرى) فقد ألفت كتاباً هو (عبادة السحر فى أوروبا الغربية Witch-Cut in Western Europe، وقد جاء فى هذا الكتاب أن جى ريتز، وجان دارك كانا يعتقدان هذه العقيدة السحرية نفسها، وأن هذا يفسر تلك الرابطة الوثيقة التى كانت تربط بينهما، وذلك أنه سمح لجان دارك بإختيار من يحميها، وقع اختيارها على دى ريتز الذى ظل

معها النهار بطولة، عندما جرحت في باريس، ولعل هذا أيضاً يفسر لنا السبب فى محاكمتهما معاً بتهمة الكفر والإلحاد التى وجهت إليهما، وهى المحاكمة التى تمت بناء على أمر المحكمة الإكليروسية.

ويعلق (برتون) على كلام (مرجريت) هذا بأن كلامها صحيح غير أنها اختصرت الكلام، لأنه لم يكن هناك عبادة سحرية واحدة بل عبادات مختلفة، ربما بلغت المئات، ليس لها سلطة مركزية، وفى كثير من الأحيان، كانت هذه العبادات ذات تنظيم أقرب إلى أن يكون تنظيماً مستقراً منه إلى أن يكون تنظيماً محلياً أقامته بعض الإرساليات التى جاءت من بعض المجتمعات الأخرى.

على أن اتهام الإكليروس لجان دارك وزميلها دى ريتز كانت دقيقة كل الدقة على الأقل من وجهة نظر هؤلاء الرجال المتظاهرين بالحفاظ على الكاثوليكية، ولسنا نقول ذلك هنا لكى نبرر ما أرتكبه هؤلاء القضاة الخبثاء الأغبياء الذين حاكموهما، أو لكى نؤيد تلك العبادة التى كانت جان دارك وزميلها يمارسانها.

ويستمر (راسكو) فى حديثة عن هذه الواقعة الخطيرة فيقرر أن الفرق بين المذهب أو الدين الذى كانت تعتنقه (جان دارك) وبين ماكان (دى جيتز) يعتنقه هو الفرق بين مذهب البابتست فى العصر الحاضر (وهم شيعة الذين لايعمدون إلا البالغين بالتغطيس) وبين مذهب أوم Oom كلى القدرة؛ وربما كانت الرابطة المشتركة بين جيتز وجان من العظم بحيث إنهما كانا عضوين من بين أصحاب تلك المذاهب التى كانت تختلف عن مذهب السلطة الدينية الحاكمة، ومعارضة لها- وهى السلطة الواسعة الانتشار العظيمة الحول والطول- وبالأحرى الكنيسة الكاثوليكية.

ويؤكد (راسكو) معلوماته هذه بإعتماده على ماذكرته الكاتبة مرجريت مرى، التى سلف ذكرها، وكذلك ماذكر (بيير تشامبيون) العالم الثقة الكبير فى تاريخ العصور الوسطى، وإن لم يدرك أن جان دارك ربما كانت من أتباع عبادة سحرية.

كانت جان دارك من أتباع عبادة نشأت حول تلك الأقاصيص التى تستثير الرأفة والحنان فى القلوب،

وبالأحرى الأقاصيص التى تناقلتها الألسن عن العذارى الشهيدات، ممن نقرأ عنهن فى تمثيليات العصور الوسطى، أمثال القديسة كاترينة، والقديسة ميرجريت (وكلاهما كانت لهما مقابلات مع الشيطان) وأقاصيص القديس ميخائيل (ذلك الذى يقولون: إن الله أمره بأن يمثله- سبحانه- كلما أراد أن يقوم بعمل من أعمال المقاومة) وربما كان القديس ميخائيل الذى كانت جان دارك تتوهمه أو تراه فى صورة شخص حقيقي، شاعت هى أن تؤمن به، ربما كان فى نظرها شخصاً أقرب إلى الوجود الحقيقى وربما كان فيما تعتقد هى شخصية أكثر قداسة بكثير من رجال الكنيسة وأساقفتها الممتلئين شحماً ولحماً أولئك الذين يكونون تلك الهيئة الهمجية المنحلة، هيئة الإكليروس.

ويستمر (راسكو) فى حديثة المثير للإهتمام فيحكى عن زميل جان دارك بأنه يتبين من خلال سجلات محاكمته أنه كان يتبع عبادة أكثر زيفاً وأشد تطرفاً من العبادة التى كانت تدين بها جان، ومن الراجح أنها كانت تتصل بسبب من الأسباب إلى تلك العبادة السرية ذات الطقوس المحكمة وهى عبادة الشيطان، الذى ينظمها فى

زماننا هذا ذلك المدعو (اليستر كراولى Aleister Crowley، ويرعاها تجار المخدرات والعاكفون عليها وذوو الأعصاب المختلة من أهل الطبقة الأرستقراطية من ذوى الثراء فى كل من إنجلترا وأمريكا).

ويضيف (راسكو) معلومات مهمة عن (ريتز) هذا فيذكر أنه قد حاول فى مناسبتين الدخول فى عهد مع الشيطان. وتقول الآنسة (ميرجريت مرى) صاحبة الكتاب الذى سبق ذكره: إن عبادة الشيطان هذه أقدم من الدين المسيحي، وتقول عن (ريتز) إنه لم يستطع أن يقرر إلى أى الديانتين ينحاز الديانة القديمة (عبادة الشيطان) أم الديانة الحديثة (أى المسيحية) فالأولى تتطلب من أتباعها التضحيات الإنسانية (أى ممارسة القتل) إرضاء للشيطان، وقد قام هو بهذه التضحيات بالفعل، بينما الديانة الحديثة تعد قتل الإنسان ذنباً يستحق من يفعله عقوبة الموت. فلقد كان (ريتز) أمام الناس، يؤدى القداسات والصلوات المسيحية، التى يحتفل بها فى أبهة بالغة وبأبهى المظاهر، بينما كان يمارس الديانة القديمة فى الخفاء، وعندما كان على وشك نقل الضحايا البشرية من قلعة شاميتك، أخذ

على شـركائه فـى تلـك الجرائـم الإيمـان المغلظـة فـى كلتـا الديـانتين أن يكتمـوا أمرهـا، ولايذيعـوا سـرها. وقـد أوقعـه تعديه على حقوق الكنيسة تحت وطـأة القـانون الإكليروسـى، ولـم تبطـىء الكنيسـة فـى الإنتفـاع بهـذا الموقـف، ولـو أنـه اختـار أن يقـاوم (سـلطة جامعـة بـاريس الإكليروسـى) لكـان من الممكن أن يحميه موقفه الذى كان يقع فى نفوس الناس فى المكان الأسنى، لكنـه آثـر الإستسـلام، وفضـل مافضلتـه جان دارك من قبول المحاكمة بتهمة التجديـف، ولـم تسـتمر المحاكمـة طويـلاً، فقـد قبـض عليـه فـى الرابـع عشـر مـن سبتمبر، ونفذ فيه حكم الإعدام فى السـادس والعشـرين مـن أكتوبـر.

أما قصـة (جـان دارك) فربمـا كـانت أشد مأسـاوية مـن قصـة زميلهـا (ريـتز). فقـد كـانت فلاحـة مـن قريـة (رو مريمـي) بفرنسـا، ألهبتهـا عقيـدة كـانت تأتيهـا مـن أصـوات تسمعها، فـآمنت بـأن هـذه الأصـوات تدعوهـا لطـرد الإنجلـيز مـن فرنسـا، ولـم تلبـث أن أصبحـت هـذه الفتـاة علـى رأس جيش يبلـغ عدده أربعة عشر ألـف جندى، وكـادت أن تظفـر ببغيتهـا، فقد هزمت الإنجليز فـى (أورليـان) بـالرغم مـن أن

عددهم كان يفوق عدد القوات التى كانت معها بمراحل، ونجحت أيضاً فى تتويج الملك الضعيف المترنح شارل السابع ملك (بواتييه) ملكاً على فرنسا وريمس، بيد أن جرأتها كانت أكبر بما لايقاس من تلك المعونة الضعيفة، بل المعونة الغادرة التى حصلت عليها، فوقعت فى أيدى الإنجليز، أولئك الغزاة الذين كلفتهم الشيء الكثير والذين أخافتهم قوتها، وألقت فى قلوبهم الرعب، فأسلموها للسلطات الإكليروسية، متهمين إياها بالسحر، يريدون بذلك غسل أيديهم من هذا الوزر، مخافة أن يهب شعب فرنسا الساذج إلى الدفاع عنها، أو أن يظهروا استياءهم من إعدامها على أيدى غرباء، فيلجأون إلى أعمال عنيفة.

وقد سارت المحاكمة إلى نهايتها المنتظرة بفضل تهديدات دوق بيدفورد الإنجليزي، وتحت بصر بييركوشون أسقف بوفيه الذى كان مديناً للإنجليز الذين عوضوه عما خسره من إيراداته حينما طرد من بوفيه والذى طمح إلى مطرانية (روان) جزاء له على خدماته التى أداها للحكام الإنجليز، وقد كان إحراق هذه الفلاحة القادمة من الريف الفرنسي ذروة الشر فى أبشع صوره

في العصور الوسطى [١].

ومن الواضح هنا أنه لولا ماصاحب هاتين الحادثتين من ظروف محيطة لظل أمر عبادة جان دارك وصديقها طي الكتمان، فمن المؤكد أن هذا التيار الجارف في أوربا في تلك العصور قد شد كثيراً من الناس لاسيما الشباب منهم إلى هذا الإنحراف الخطير. وربما كان ماصاحب هذه العبادة من طقوس سحرية عاملاً من عوامل الجذب إليها، خاصة إذا علمنا أن هؤلاء السحرة كانوا يركزون على موضوع له خطورته بين البشر لاسيما الشباب وهو موضوع الحب والكره والجنس، وربما العمل على تحقيق الثروات بطرق سهلة غير مشروعة بطبيعة الحال. وقد استمرت هذه الظاهرة في أوروبا وانتقلت منها إلى أمريكا وغيرها من أقطار العالم الجديد، وظهرت دوائر في تلك البلاد فيما يسمى بجمعيات تحضير الأرواح، واستدعاء أرواح الموتى من قبورهم إلى درجة أن الروح في الجلسات السرية كانت تتحدث مع أهلها

(١) المرجع السابق: ص١٤-١٩.

وذويها، وإذا كان الشخص قد قتل مثلاً فإن روحه تخبر الحاضرين باسم القاتل وكيفية حدوث حادثة القتل وهكذا، وماذاك إلا لأن الشيطان هو الذى يتحدث ويخبر، وليس ذلك من باب الإخبار بالغيب، بل كل ماكان يخبربه أمور حدثت فعلاً والشيطان شاهدها أو أن ذريته وجنوده ممن حضر الحادثة يتولون إخباره بذلك، وبالرغم من أن القرآن الكريم قد أخبرنا بمثل هذه الحيل والألاعيب فى قوله تعالى فى صورة حواربين الله عز وجل وبين إبليس: «وإذ قلنا للملائكة إسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً، قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتنى إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً، قال إذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً، واستفزز من استطعت منهم بوصتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والاولاد وعدهم ومايعدهم الشيطان إلا غرورا، إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا»[١]. أقول: بالرغم من ذلك فإن أخبار

---

(١) الأسراء: ٦١-٦٥.

هذه الأفاعيل الشيطانية فى العالم الغربي قد وصلت إلى بلاد الشرق الإسلامي، وصدقها أناس كثيرون، ربما كان الأمل أن يكونوا أول الكاشفين لبطلانها لاسيما إذا كانوا من رجال الأزهر مثل الشيخ طنطاوى جوهرى الذى أغرم بهذا اللون من القصص التى هى أشبه ما تكون بحكايات العجائز فى ريفنا لكى تخيف أحفادهن من الأطفال كى يناموا، إنه يقول فى مطلع كتابه: «إلى محبى العلم، وعاشقى الحكمة من أمتنا المصرية والأمم الإسلامية أقدم لكم كتابى هذا مما قرأته فى كتب الأوائل والأواخر من الشريعة المحمدية، والسيرة النبوية، وماجاء مصداقا لها فى الجمعيات النفسية والمحافل الأوروبية الروحية، ومن حكمة قويمة، وآية غريبة وآراء بديعة، من الأفلاطونية، والحكم السقراطية، والمذاهب والأدلة السخية، ثم الفيدازية والراجايوقية، وماجاء فى الأسفار عن علماء العصر الحاضر من آلاف الآلاف فى أمريكا وألمانيا وانجلترا وفرنسا وإيطاليا والبرتغال والأسبان والروسيا، وسائر أوروبا المجدين، قد استخرجت من كنوز الأمم وخزائن الحكماء هذه الجوهرة الثمينة، قدمتها لكم

بين يدى نجواى بشرى بالفلاح وتبصرة وذكرى للعاملين»[1].

وبعد هذه البشرى بالفلاح، يذكر أن أهل الحضارة الغربية الذين برعوا فى مختلف العلوم والفنون قد توصلوا إلى استنطاق الأرواح لكى تشرح لهم مايحدث فى عالم البرزخ من نعيم وعذاب «ألا فليعلم المسلمون فى أقطار الأرض أن المحافل الروحية والمجامع النفسية فى البلاد الأوروبية، قد نطقت فيها الأرواح، على مرأى ومسمع من مجالس شوارهم والملأ من قومهم ومجالس الشيوخ والأعيان فى أمريكا وغيرها... لقد شرحت الأرواح ماشاهدته فى عالم البرزخ من نعيم وبؤس، وهناء وعناء، وخاطب الأموات الأحياء، والآباء الأبناء، فأنصت الجميع، وكفكف الدمع، وجاءت البشرى بالحياة الأخرى، وقال الأموات للأقارب والأخوان (وإن الدار الآخرة لهى

(١) جوهرى، الشيخ طنطاوى: كتاب الأرواح، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٣٨هـ/١٩٢٠م، ص٤.

الحيوان) فصدق الله وعده» [١].

ولايكتفى الشيخ بذلك، بل يدعو إلى نشر علم السحر واستحضار الأرواح- كما يزعم- فى مصر والعالم الإسلامى فيقول: «فهل نقف نحن معاشر الملسمين، أمام هذا الحادث صامتين! إنه لعيب فاضح، وخطأ واضح، وشين مبين، نحن أحق بهذا العلم من الغربيين» [٢].

ولاينسى الشيخ أن يعطينا ملخصاً لموضوع كتابه هذا فيذكر: «فى الكتاب جوهرة وياقوتتان، أما الجوهرة فكيفية تحضير الأرواح عند القوم وآدابها وعجائب التنويم المغناطيسي، عسى أن يقوم بالأمر من عندهم (المسلمين) لهذا الإستعداد؛ وأما اليقوتتان، فإحداهما ملخص مادار من الحديث بين العلامة (أوليفر لودج) الطبيعي الشهير وبين أبنه (ريمند) الميت فى الحرب الحاضرة (العالمية الأولى)... وثانيتهما كتاب (برايفت دودنج) الذى انتشر فى

(١) المرجع السابق، ص٥.

(٢) المرجع السابق، ص٥-٦.

إنجلترا بسرعة مدهشة، وفيه يصف الروح: كيف كان موته بمدافع الألمان، ومقابلته لأخيه الميت قبله، وأخبار أخرى عن مستقبل أوروبا ومصر والإسلام وسائر نوع الإنسان» (١).

(١) المرجع السابق، ص٨-٩.

رقم الإيداع ١٠٠١٨/٢٠٠٠

الأنوار بالقاهرة